الصوم

(نقلاً عن نشرة البطريركيَّة – آذار ١٩٧٣)

للمثلَّثِ الرحمةِ البطريرك الشهيد الياس الرابع

للصيامِ معنى أعمقُ ممَّا يتصوَّرُه البشر. الإنقطاعُ عن المآكلِ الشهيَّةِ والإكتفاءُ بالشيءِ القليلِ من الأطعمةِ سبيلٌ إلى شيءٍ أسمى وطريقٌ إلى التحرُّرِ وغايةٌ لنقاوةِ الجسدِ والروحِ للوصولِ إلى القداسة.

للجسدِ في المسيحيَّةِ كما للروحِ وزنُه وقيمتُه. لم يُخلقِ الجسدُ لينحلَّ. خُلِقَ رفيقًا أزليًّا لأزليَّةِ النفسِ. «احتفظوا بأجسادِكم فإنَّها هياكلُ اللّهِ المقدَّسةُ». جعلَ اللّهُ الجسدَ هيكلاً لصورتِه وجعلَه ليكون سكنى له. كلُّ إساءةٍ تنالُه تنالُ اللّهَ الساكنَ فيه. اللّه لا يسكنُ إلاَّ في النقاوة. ما دامَ الجسدُ نقيًّا يكونُ اللّهُ فيه. أمَّا إذا اتَّسخَ فيصبحُ بيتًا مهجورًا فارغًا، وميدانًا لضبابِ الأوهامِ والخيالاتِ المريضة.

الإحتفاظُ بأجسادِنا كهياكلَ مقدَّسةٍ لسكنى اللّهِ لا يتحقَّقُ بالأطعمةِ اللذيذةِ والألبسةِ الفاخرة. الاحتفاظُ بأجسادِنا يعني إخراسَ الشهواتِ التي للموت، جَعْلَهُ فوقَ الجوعِ والعطشِ والحرِّ والبرد. أن نميتَ فيه ما للموتِ لتبقى النقاوة، هو المقصودُ من الاحتفاظ، أيْ أن ننقلَ جسدَنا من حالةِ الموتِ إلى ديمومةِ الحياة، أن يتحوَّلَ الفناء الذي فيه إلى خلود، أي أن نحافظَ على ولادتِه في المعموديَّة، أن يبقى مولودًا لا تحتَ الناموس، بل تحتَ نعمةِ التبنِّي.

وفي الصيامِ الحقيقيِّ تقومُ فكرةُ التحدِّي، التحدِّي للشهوات، التحدِّي للضعفِ البشريّ. «إنْ أكلنا

لا نزيدُ وإنْ لم نأكلْ لا ننقصُ». الأكلُ شيءٌ ثانويٌّ بالنسبةِ لحقيقةِ وجودِنا. إذا استَعبَدَنا دمَّرنا. الصيامُ هو التحدِّي لهذا الاستعبادِ وإرادةُ الغلبةِ فينا. ليس الطعامُ غايةً نعملُ من أجلِها ويستأثرُ بكلِّ جهودنا. الأكلُ لا يزيدُنا ولا ينقِصُنا. الأكلُ حاجةٌ طبيعيَّةٌ يجبُ ألاَّ تتعدَّى هذه الحدود. إذا تمكَّنَّا أن نتحكَّمَ بالجوعِ والعطشِ والحرِّ والبرد، وبإمكاننا أن نفعلَ ذلك، تمكَّنَّا أن نضعَ أقدامَنا في الطريقِ القائدِ إلى الخلاص. لقد فعلَ ذلكَ كثيرٌ من القدِّيسينَ، وكان النسَّاكُ أبطالاً لهذا التحدِّي. عرفوا كيفَ يروِّضونَ الجوعَ والعطش، ويعجمونَ عودَ الشهواتِ ويغيِّرونَ معناها ويحوِّلونَها إلى دوافعَ نبيلةٍ تضعُ الجسدَ في المرتبةِ التي تليقُ به.

إرادةُ التحدِّي لشهواتِ الجسدِ تنبعُ، لا من الجسدِ فقط، بل من إرادةِ الروحِ الساعيةِ إلى أزليَّتِها، وهي التي تُكسبُ إرادةَ الجسدِ قوَّةً تقاومُ الشرِّير. كلَّما شعرتِ النفسُ بمصدَرِها الإلهيّ، وكلَّما تفاعلتْ معَه، كلَّما قويتْ وأكسبت الإرادةَ الجسديَّةَ مناعةً وصلابةً، وكلَّما تنقَّتْ من مرضِ الكبرياءِ والأنانيَّةِ والطمعِ وحبِّ الإمتلاك والحرصِ والرياء، كلَّما ازدادَ ارتباطُها باللّهِ وشعَّتْ لتنعكِسَ على إرادةِ الجسدِ نورًا تخلعُه عليهِ ليُشِعَّ ويشفّ. النعمةُ هي التي تحرِّرُ النفس، وكلَّما تفاعلتِ الروحُ مع النعمة، كلَّما ازدادت حرِّيَّةً. وازديادُ حرِّيَّةِ النفسِ يعني ازديادَ نقاوتِها وضيائها، وبالتالي تصبحُ هيمنةُ الروحِ على الجسدِ لا هيمنةَ استعبادٍ بل هيمنةَ تلاقٍ في الغايةِ والقصد.

هذا التلاقي الخصيب بين الروحِ والجسد هو السبيلُ الوحيدُ للحفاظِ على أجسادِنا كهياكلَ للروحِ القدس. ولكي تبقى أجسادُنا مسكنًا للربِّ يجبُ أنْ نصومَ الصومَ الروحيَّ والمادِّيَّ، أن نأكلَ ونشربَ ما يكفي للقوت، لتبقى اهتماماتُنا روحيَّةً، لا تتأثَّرُ بلذَّةٍ ولا تخضعُ لهوى، بل لِما تفرضُه عليها النعمةُ الإلهيَّةُ، وبما يقودُنا إلى أزليَّةِ الحياة.

ويأخذُ الموتُ في الصيامِ عمقَهُ وأبعاده. الصيامُ دعوةٌ إلى الموت، موتِ كلِّ ما يشوِّهُ نقاوةَ الجسدِ والروح. إنْ لم تمت حبَّةُ الحنطةِ فلن نحصدَ ثمارًا وإنْ لم تمتْ شهواتُنا وأهواؤنا، فلن نرى النقاوةَ في أجسادِنا وأرواحِنا. موتُ الشهواتِ يفترضُ صليبًا، يفترضُ ألمًا عميقًا، يفترضُ تضحيةً حتَّى الصليب. والصيامُ أي الترفُّع عن شهواتِ الدنيا ومطامحِ النفسِ المريضة، هو صليبٌ يشدُّ المؤمنُ روحَه وجسدَه إليه، ليقطفَ بالألمِ خمرةَ الخلاصِ والانعتاق. كلُّ هذا لا يتمُّ ولا يثمرُ إلاَّ إذا كانتِ النعمةُ الإلهيَّةُ وراءَ

كلِّ إرادتِنا وأتعابِنا وجهاداتِنا.

لذلك، خصَّصتِ الكنيسةُ المقدَّسةُ الصياماتِ المباركةَ لتكونَ سبيلاً للحفاظِ على جِدَّتِنا في الحياةِ وعلى بنوَّتِنا في المسيح. ولكي يبقى الإنسانُ في جدَّةِ الحياةِ وجدَّةِ الولادة، عليهِ أن يشعرَ بأنَّ موتًا يجبُ أنْ يستمرَّ فيه. من دونِ الشعورِ الدائمِ بالموتِ، لا يمكنُ أن تضيء نيرانُ الفضائل، ولا أن يشعَّ نورُها. الصيامُ صورةٌ جميلةٌ من صورِ الإرادةِ البشريَّةِ المُحبَّةِ للحياةِ الأزليَّة. النعمةُ الإلهيَّةُ هي الدواءُ الشافي لكلِّ أمراضِنا الروحيَّةِ والجسديَّةِ، لأنَّها هي الحياةُ. ابتعادُنا عنِ النعمةِ يُميتُنا، والحياةُ فيها يزيدُ إرادتَنا قوَّةً للبقاءِ في جِدَّةِ الحياةِ الأزليَّة.

الصومُ مُقبِلٌ علينا، فلنُقبِل عليه برجاءٍ وشوق. والصومُ يفتحُ أمامَ النفسِ والجسدِ ميدانَ الجهادِ المقدَّس، فلنتبارَ في ساحةِ الجهادِ لننالَ إكليلَ التبنِّي.

اللهمَّ إجعلْ صيامَنا مقبولاً، وقوِّ نفوسَنا وأجسادَنا، واجعلْها مسكنًا مقدَّسًا لنعمتِكَ القدُّوسة، وسهِّلْ خطواتِنا في طريقِ قيامتِكَ لنشعَّ بالنورِ المعدِّ لمختاريكَ وقدِّيسيك.

دير رقاد والدة الإله - حمَطوره ©
٢٠١٣